بقلم : أحمد عبد الرحيم السايح
« من علماء الأزهر »

٢ ـ القرآن والعقل

من أوضح سمات القرآن الكريم ، التي لفتت نظر الباحثين في القرآن ، من المسلمين وغير المسلمين ، إشادة القرآن بالعقل ، وتوجيه النظر إلى استخدامه ، للوصول إلى الحقيقة ، فقد دعا القرآن بطريق مباشر وغير مباشر ، وصراحة وضمناً ، وجملة وتفصيلاً ، إلى تعظيم العقل والرجوع إليه .

ويحرص القرآن على تأكيد هذا المعنى ، حتى أنه ليكرر هذه الدعوة بشكل يلفت النظر ، ويثير الإهتمام .

ويشير القرآن إلى العقل بمعانيه المختلفة ، مستخدماً لذلك كل الألفاظ التي تدل عليه ، أو تشير إليه من قريب أو بعيد ، من التفكر ، والقلب ، والفؤاد ، واللب ، والنظر ، والعلم ، والتذكر ، والرشد ، والحكمة ، والفقه ، والرأي . إلى غير ذلك من الألفاظ التي تدور حول الوظائف العقلية ، على اختلاف معانيها ، وخصائصها ، وظلالها ، مما يعتبر إيحاءات قوية بدور العقل الإنساني وأهميته في الحياة .

وهذه الألفاظ في مجموعها ، تكوّن دائرة واحدة ، يتصل معناها جميعاً بالعقل ووظائفه ، في أوسع معانيه .

هذا ، وكلمة العلم التي وردت في القرآن ، في أربعين وخمسمائة آية ،

Made With Pdf Office

ليس المقصود بها في القرآن علم الدين وحسب ، وإنما قصد بها ، كل علم نافع يرفع من قدر الإنسان ، وينمي مواهبه العقلية ويجعله أكثر خبرة ، ومعرفة بأمور الدنيا ، واستفادة منها ، وإفادة بها .

أثر القرآن في تنمية القوى العقلية :

نزل القرآن بين العرب ، وباللغة العربية ، وكان العرب عند نزول القرآن ، مختلفين في عقائدهم ومعتقداتهم ، اختلافاً كبيراً ، منهم المشركون عبدة الأصنام ، ومنهم من كان يعتنق النصرانية أو اليهودية ، ومنهم الأحناف الذين ترجع عقيدتهم إلى ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ومن هؤلاء وأولئك ، من كان يتطلع إلى دين جديد ، ونبي جديد ، ولكنهم لا يدرون من أي قبيلة سيكون ذلك النبي ، وبأي دين سيأتي .

غير أن رأياً عاماً ، كان منتشراً بينهم ، وهو قُرب مقدم النبي الذي تحدثت عنه الكتب السماوية ، وملأ خبره أرجاء الجزيرة العربية .

وقد حدثنا القرآن عن هذه الأنماط المختلفة من العرب ، وذوي العقائد المتباينة ، وخاطبهم جميعاً ، منهم من كان يُنكر الخالق ويقول : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلاّ يظنون » .

ومنهم من كان يعترف بوجود الخالق ، ولكنه ينكر البعث ، ويقول : « إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد » وكان معتنقوا الأديان الكتابية على خلاف فيما بينهم ، « وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء » .

وعلى الرغم من وجود هذه المعتقدات والآراء ، إلاّ أن التاريخ لم يثبت أن هذة المعتقدات والآراء ، كانت تقوم على منهج عقلي أو فلسفي واضح ، ولم يتح للعرب أن يبلوروا هذه المعتقدات في فلسفة فكرية ذات قواعد ومنهج محددين ، بل كانت قاعدتهم الفكرية هي قولهم : « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنّا على آثارهم مهتدون » وهذه القاعدة من شأنها أن تحجر على الفكر : النظر والبحث والتأمل ، وبالتالي توقف النمو العقلي عن الوصول إلى الحقائق المتصلة بالإنسان ، والكون ، والحياة ، مادياً وروحياً .

ويمكن أن نقول : أنّ العالم الإنساني كان مغموراً بموجة طاغية من فساد

Made With Pdf Office

الإعتقاد . بعضه يهيم في عماء الجهل والتقليد الأعمى ، وعبادة الأهواء ، لأن الوثنية التي كانت من مواريث الجهل والتبعية العمياء ، استحوذت على العقول والأفهام ، وبعضه يرسف في أغلال الحجر العقلي ومضلته ، وبقي هذا الفساد مستحكماً في هؤلاء وهؤلاء ، حتى جاء الإسلام لإصلاح هذه الأوضاع الفاسدة ، وتحرير الإنسان من هذه الأغلال الجاثمة على عقله وفكره . كانت مهمة القرآن ، هي العمل على إبطال القاعدة الخاطئة « إنّا وجدنا آباءنا على أمة » وتحرير الإنسان من أغلال الحجر العقلي ، وسيطرة التبعية العمياء ، وتربيته على حرية الفكر ، واستقلال الإرادة . ليكمل بذلك عقله ، ويستقيم تفكيره ، وتتهذب قواه .

فوجه القرآنُ الفكرَ ، إلى كل ما من شأنه ، أن يدعو إلى استعمال العقل والتدبر والتأمل ، حتى تزول تلك الحجب الكثيفة ، التي تحول بين العقل والرؤيا الصحيحة للأشياء ، وليخلق أمة جديدة ، هي أمة القرآن العاقلة المفكرة الباحثة الدارسة ، التي تعلي من شأن العقل ، وتستخدمه في مختلف شئونها ، وتفتح أمامه آفاقاً غير محدودة ، لاستكناه حقائق الوجود ، في هذا العالم الكبير .

ولقد اشتملت توجيهات القرآن العقلية ، على أصول ومبادىء عامة ، صلحُت لأن تكون منهجاً فكرياً سليماً ، حدد به المسلمون موقفهم من مشاكل الكون والحياة ، وبالتالي مكنت هذه المبادىء والتوجيهات المسلمين من الإستفادة ، من تلك الدرة الإلهية التي منحها الله للإنسان وهي : « العقل » فنمته وجعلته يمارس الوظيفة الأساسية التي خلق من أجلها .

طالب القرآن كل ذي عقل بالنظر في عوالم السموات والأرض ، وما فيهما من الدلائل الواضحة كما في قوله تعالى : « أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله » ، « قل أنظروا ماذا في السموات والأرض » « ألم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ، وما لها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » ، « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خُلقت وإلى السماء كيف رُفعت وإلى الجبال كيف نُصبت وإلى الأرض كيف سُطحت » « وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون » .

Made With Pdf Office

واستنهض العقول ، ووجه الأفهام ، وأيقظ الحواس ، ونبّه المشاعر ، بالتعقيب على بيان الآيات الكونية والتشريعية بمثل قوله تعالى : « إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » ، « إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ، « إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ، « إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون » ، « ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » ، « إنما يتذكر أولوا الألباب » ، وبشر الذين يستمعون القول ، فينظرون إليه نظر البصير ، ويتبعون منه ما يدل على الحق ، ويرشد إلى طريق العلم والقوة .

ولم يكتف القرآن بهذا . بل ذم الغافلين ، ونعى عليهم غفلتهم ، وإعراضهم عن الآيات الكونية التي يشاهدونها ، في كل لحظة وتطالعهم بدلائلها في كل آونة ، كما في قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » ، « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل وأولئك هم الغافلون » ، « وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » .

وعاب القرآن على أسرى التقليد ، إعراضهم عن الحق ، وجمودهم على اتباع ما وجدوا عليه آباءهم ، كما قال تعالى : « وإذا قيل لهم اتّبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتّبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » .

فالتقليد الأعمى من شر ما تُبتلى به الأفراد والجماعات لأنه يميت مواهب الفكر والنظر ، ويوجب جمودها وركودها .

والقرآن الكريم : فوق هذا وذاك قرر حق الإنسان في حرية الفكر ، واستقلال الإرادة ، وحرية الفكر التي جعلها الإسلام رائداً للتفكير ، ونبراساً للعقول والأفهام . هي الحرية التي تطلق العقول والأفهام ، من أغلال الحجر العقلي ، والكبت الفكري ، وتحررها من سيطرة التقليد والتبعية العمياء ، وتجلي لها معالم الحقائق ، وتجعل قيادة التوجية قيادة بناء وإصلاح .

وزاد الإنسان ذلك بأن قرر تحرير الإنسان من أصفاد الجهل وظلمته ، لأن الجهل يقتل مواهب الفكر والنظر ، ويطفىء نور القلوب ، ويعمي البصائر ،

Made With Pdf Office

ويميت عناصر الحياة والحركة والقوة في الأمم ، ويفسد على الناس مناهج حياتهـــم .

فذم الجهل والجاهلين في مواطن كثيرة ، كما في قوله تعالى : « يظنون بالله غير الحق ظـــن الجاهلية » ، « أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون » ، « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » ، « فلا تكونن من الجاهلين » ، « إنني أعظك أن تكون من الجاهلين » .

وعاب الذين يتبعون الظنون والأوهام ، كما في قوله تعالى : « وما يتبع أكثرهم إلاّ ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً » ، « إن يتبعون إلا الظن وان هم إلا يخرصون » .

وعظم شأن العلم وحثّ على طلبه والسعي إليه كما في قوله تعالى : « بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » ، « وقل رب زدني علما » ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » ، « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » .

ونوه بفضل الحكمة ، وما فيها من السمو والتألق والإرتفاع كما في قوله تعالى : « يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » ، وقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا حسد إلاّ في اثنين : رجل أتاه الله مالاً فسلّطه على هلكته في الحق ، ورجل أتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس » .

ورفع منزلة العلماء وجعلهم أهل خشيته ، وقرن شهادتهم ، بشهادته تعالى ، وشهادة ملائكته كما في قوله تعالى : « قُل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » ، « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ، « شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأُولوا العلم » .

وجعلهم ينابيع العلم ، وموارد المعرفة ورواد الحق ، كما في قوله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » .

Made With Pdf Office